حديث القرآن الكريم عن الشعر

دراسة بلاغية نقدية

الدكتور / محمد نافع المصطفى

أستاذ مساعد

قد لا يستهوى هذا العنوان من يقرؤه ، لكثرة ما كتب تحته من دراسات تكاد تكون متشابهة ، ولا جديد سوى إعادة الترتيب. ولا أزعم أنى سآتي بما لم تستطعه الأوائل ، وإن كنت أدعى – واثقاً – أن كثيراً من الباحثين الذين تناولوا هذه القضية الخطيرة. تناولوها من زاوية واحدة ، لا تكاد عيونهم تفارق كتب الأدب القديمة ... التى ما كان يدور فى أذهان أصحابها أن يضعوا هذه القضية فى مكانها الطبيعي ، ضمن الأنشطة الإنسانية ، التى لا يقر المجتمع الإسلامي منها إلا ما تسربل بأثواب العبادة أو ما فى معنى العبادة . لأن كلمة الدين كانت هى العليا، والتصور الإسلامي لتلك الأنشطة وغيرها ماثل فى أنظار المجتمع.. فأغنى الواقع القائم عن التنظير لها فى دراساتهم ، من غير غض من قيمتها ، ولا حط من قدرها . فإنما هى جهد عصر ، وطبيعة حياة. فأراد اللاحقون أن يقعدوا لهذه القضية فاستعانوا بكتب الأدب تلك . فكان البناء واهناً أحياناً ، ومائلاً أحياناً أخر . لهشاشة تلك اللبنات المستعارة. فكم من حكم أقاموه، وصرخوا به على تفسير لآية لم يحالفه الصواب ، بعد أن آثروه على فهم سلفنا الصالح لها ، الذين تلقوه عن رسول الله (ﷺ) أو ما قادهم إليه فهمهم لمعانى الكتاب ، لأنهم أصحاب الفصاحة والبلاغة، وأرباب اللغة وأساليبها ، أو على حديث باطل أو موضوع أو ضعيف، أو خبر مكذوب ، ولم تلق الحقيقة فى ذلك رعاية منهم .. إلى جانب انتزاع الآيات التى تخص حديثنا مرتين ، مرة من سياقها القرآنى المترابط ، ومرة من التصور القرآنى الشامل للحياة والنشاط الإنسانى

فيها ؛ فجاءت أحكامهم ناقصة أو جانحة. والحكم على الشيء فرع من تصوره ، فإذا كان التصور مبتوراً كانت الأحكام كذلك.

والآيات التى احتضنت كلمات (الشعر ، والشاعر ، والشعراء) لا يمكن – إذا أردنا فهم المراد منها – أن ننتزعها من سياقها ، ولا نعزلها عن مجموع التصورات القرآنية ، التى ستعمل مجتمعة على صياغة الإنسان صياغة عقدية ، ارتضاها من له الأمر والخلق. والذى نعنيه هذا الدين (الإسلام) بكل جزئياته الاعتقادية والتعبدية والتشريعية. (إن الدين عند الله الإسلام ، ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين)[1] فلا تبديل ولا تغيير. لأن التعديل فيه كإنكاره كله ، بعد أن قرر المولى سبحانه تمامه وكماله : (اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا) [2] ولو كان تحت إدعاء تطور الحياة ، وكثرة المستجدات . لأن تطور الحياة فى رواق منهج الله ، لا يعنى مجافاته أو الغفلة عن أصل فيه أو فرع ، ولأن المنهج الإلهى يحتوى كل الإمكانات التى تسع مستجدات الحياة وتطورها. فخلا من نقص يستدعى الإكمال ، أو قصور يتطلب الاستدراك. ولأنه أنزل عن مصدر ثابت العلم والإرادة. [مصدر يرى المجال كله ، والخط كله ، فلا تخفى عليه منحنيات الدرب، ولا يقدر تقديراً يظهر فى غد خطؤه ونقصه ، ولا تتلبس به شهوة أو هوى يؤثر فى ميزانه وتقديراته] [3] و كل تصور بشرى – دابر الهدى الإلهى – محكوم عليه بالقصور والفشل ؛ لأنه صادر عن صاحب هوى وضعف، وهما سمتان متأصلتان فى الجنس البشرى.

والإنسان فى سعيه أمام خيارين ، إما أن يختار ما يرضى الله عز وجل ، وإما الأهواء المتقلبة ، والنزوات الجامحة ، فالأمر إما شريعة الله، وإما أهواء الذين لا يعلمون (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) [4].

---

(١) آل عمران / ١٩ ، ٨٥ .
(٢) المائدة / ٣ .
(٣) خصائص التصور الإسلامي ، سيد قطب ، ص/ ٨٧ ، دار الشروق / القاهرة . ط١٤٠٠هـ.
(٤) الجاثية / ١٨ .

والأمر يقتضى أن نكشف عن تلك المصطلحات التى أوردناها آنفاً. وهذا يلزمنا أن نلمح سريعاً إلى حال العرب الذين بعث فيهم الرسول (ﷺ). لأنها تعزز فهمنا للواقع الذى عالجه القرآن الكريم، هدما وبناء. وهذا منهج القرآن فى التمكين للحق، فلابد أن يكشف عن عوار الواقع القائم المظلم، كى تتجلى سبيل الحق واضحة. (وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين) [1] فاستبانة سبيل المجرمين ضرورية لاستبانة طريق المؤمنين. لأن اليقين الاعتقادى بالحق والخير، يقتضى معرفة نقيضه من الباطل والشر؛ كى لا تختلط السبل، ويتميز الركب.

وآفة الدارسين اليوم اختلاط تلك السبل فى أنظارهم، كما اختلطت فى أنظار أعراب الجزيرة، لما طال عليهم الأمد، وبعدوا عن أزمان النبوة والأنبياء. فجروا على شهوات أنفسهم، وتمسكوا بإرث الآباء، فابتلوا بانحطاط شديد، ووثنية سخيفة، وأدواء خلقية جعلت منهم أمة متهدمة الأركان، سقيمة الجنان، وبعيدة عن محاسن الأديان. [كان الشرك هو دين العرب العام، والعقيدة السائدة، كانوا يعتقدون فى الله انه آله أعظم، خالق الأكوان، ومدبر السماوات والأرض، بيده ملكوت كل شىء.

(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) [2] ولكن ما كانت حوصلة فكرهم الجاهلى، تسع توحيد الأنبياء فى خلوصه وصفائه وسموه. وما كانت أذهانهم البعيدة العهد بالرسالة والنبوة والمفاهيم الدينية، تسيغ أن دعاء أحد البشر يتطرق إلى السموات العلى، ويحظى عند الله بالقبول مباشرة، بغير واسطة وشفاعة. قياساً على هذا العالم القاصر وعاداته.... فبحثوا لهم عن وسطاء توسلوا بهم إلى الله، وأشركوهم فى الدعاء، وقاموا نحوهم ببعض العبادات، ورسخت فى أذهانهم فكرة الشفاعة، حتى تحولت إلى عقيدة قدرة الشفعاء على النفع والضرر، ثم انحطوا فى الشرك – حيث أشربته قلوبهم – فاتخذوا من

---

(١) الأنعام / ٥٥.
(٢) لقمان / ٢٥.

دون الله آلهة . واعتقدوا أن لهم مماثلة ومشاركة فى تدبير الكون ، وقدرة ذاتية على النفع والضرر ، والخير والشر ...

ولم يزل هذا الفريق يقوى أمره ويستفحل ، مع إمعان القوم فى الجاهلية ، والنزعة الوثنية ، حتى أصبحت هذه العقيدة سائدة ... فانغمست الأمة فى الوثنية ، وعبادة الأصنام بأبشع أشكالها ، فكان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة صنم خاص ... وكان لهم آلهة شتى من الملائكة والجن والكواكب ... وكان جمهورهم ينكر اليوم الآخر والجزاء ، ويرى أن العالم لا يخرب ولا يبيد ، وإن كان مخلوقاً . وكان فيهم من يقر بالمعاد ... أما أخلاقهم ففيهم أدواء وأمراض متأصلة ، فكان شرب الخمر عادة لهم ، يفخر بها الشعراء ، ويتغنون بمعاقرتها ، والتحلق لاحتسائها ، ولم تكن الفاحشة نادرة ولا مستنكرة.

وعرفت أنواع النكاح كلها إلا واحداً ، مما يندى له جبين الخير والحياء ، كما ذكرت السيدة عائشة رضى الله عنها : إن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء : فنكاح منها نكاح الناس اليوم ، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته ، فيصدقها وينكحها. والنكاح الآخر : كان الرجل يقول لامرأته – إذا طهرت من طمثها - : أرسلى إلى فلان ، فاستبضعى منه ، ويعتزلها زوجها ، ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل ، تتبضع منه ، فإذا تبين حملها ، أصابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك ؛ رغبة فى نجابة الولد. فكان هذا النكاح الاستبضاع . ونكاح آخر : يجتمع الرهط دون العشرة ، فيدخلون على المرأة ، كلهم يصيبها ، فإذا حملت ووضعت ، ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها ، أرسلت إليهم . فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها ؛ تقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم ، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمى من أحبت باسمه ، فيلحق به ولدها. ولا يستطيع أن يمتنع ممن جاءها ، وهن البغايا ... [1] .

وكانت المرأة فى الجاهلية مهانة وعرضة للحيف والعسف. وما خلص كثير من البنات من الوأد حتى جاء الإسلام.

---

(١) البخاري ، كتاب النكاح ، باب لا نكاح إلى بولي.

أما العصبية القبلية ، فقد طغت على كل الروابط ، إذ يتناصرون على أساسها ظالمين ومظلومين ؛ مما طبع حياتهم بطابع الغزو والحرب. فهانت عليهم إراقة الدماء لأتفه الأسباب .... وأصبحت الحياة كلها شبكة محبوكة من تراث وثارات ، فشت حبائلها فى القبائل ، وأوصى بها الآباء والأبناء. وحملت العيشة البدوية وقلة أسباب الحياة والطمع والجشع والأحقاد والاستهانة بحياة الإنسان على الفتك والسلب والنهب ، حتى كانت أرض الجزيرة كفة حابل ، لا يدرى الإنسان متى يغتال ، وأين ينهب ....) [1] . هذا الواقع المظلم الممزق الأشلاء ، كان محضن الشعر الجاهلى ، ومن تلك القيم الجاهلية كان يمتح الشاعر لفنه. وهذا هو المجتمع المتهالك ، الذى أعيد بناؤه من جديد على يد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبتوجيه إلهي يتنزل عليه ، كان بجملته القرآن الكريم . فكانت تلك النقلة الجديدة البعيدة ، كما بينها جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه بين يدى النجاشى ، وفى مجلسه وفد قريش : [أيها الملك! كنا قوماً أهل الجاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام ، نسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف. فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه. ودعانا إلى الله لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دون الله . وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الأرحام ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة. وأمرنا أن نعبد الله وحده ، ولا نشرك به شيئاً. وأمرنا بالصلاة والزكاة والصوم ، فصدقناه ، واتبعناه على ما جاء به من الله. فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئاً. وحرمنا ما حرم الله علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان ، بعد عبادة الله. وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث....) [2].

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبى الحسن علي الندوي ، ص/ ٥٢-٦٢ ، بتصرف ط/ الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية / الكويت. بدون تاريخ.

(٢) السيرة النبوية ، لابن هشام ، ٣٥٨/١ . تحقيق / الأبيارى والسقا والشلبي ، مؤسسة علوم القرآن / ودار القبلة . بدون تاريخ .

إن أول ما يستوقفنا فى هذه الكلمة الرصينة قوله: (كنا أهل جاهلية ... دعانا إلى الله لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه ....) وهى القضايا الجوهرية التى كان عليها مدار التغيير . لأن ارتكاس البشر عامة ، والشعراء خاصة – قديماً وحديثاً - فى حمأة الرذيلة ، وميالغ الفساد. نتيجة طبيعية للمعتقدات الفاسدة التى يحملونها ، لأن النشاط الإنسانى يصدر عن تلك المعتقدات. إذ (ظل الأدب مرتبطاً بالعقيدة الدينية على مدى عصور طويلة. حتى إذا كنا فى العصور الحديثة ، ولم يعد للسلطة الدينية وجهها الجماعى القديم، وراح الإنسان يبحث عن عقيدة أخرى ، وظل هكذا ينتقل من عقيدة إلى أخرى. ومن ثم لم تخل أعماله الفنية فى أى وقت من أن تكون تعبيراً عن عقيدة ، أيا كانت هذه العقيدة) [1].

فالدين هو صائغ أعمق معالم الخصوصيات الثقافية والأدبية والسلوكية. بل هو أعمق المكونات الفكرية تداخلاً فى البنى الشعرية. لتداخلاته الدائمة والفعالة فى خلجات النفس الإنسانية.

وقد عبر القرآن عن ذاك الواقع النكد ، (بالجاهلية ، التى ولدت عن تصورات منحرفة . وجاءت فى معنى من معنيين. يشكلان معاً حقيقتها . وهما : الجهل بحقيقة الألوهية ، والجهل بما ينبغى تجاه الله سبحانه من خالص الطاعة والعبودية . وما تلك الآفات التى تردى بها الجاهليون إلا مظاهر تلك العقائد الفاسدة التى يحملونها وثمارها.. فكان الانحراف الأخطر ، وهو الانحراف العقدي، فلا عجب إذا أنفق الرسول (ﷺ) من عمر دعوته شطره لتصحيح ذلك الانحراف ، لأن كل جهد يبذل ، وعرق يسكب فى سبيل استقامة السلوك ، مع بقاء الانحراف العقدى ، لن يؤتى ثماره كاملة ، ولن يخرج الأمة مما ارتكست فيه. فكان لابد من تغيير عميق ، يبدأ من أغوار النفس البشرية ؛ لإخراجها من واقعها ذاك . فكان السهم المردى المسدد لمقتل الجاهلية إعلان لا إله إلا الله محمد رسول الله .. وحولها احتدم الصراع .. لأن البناء العقدى فى

---

(١) الشعر في إطار العصر الثوري ، لعز الدين إسماعيل ، ص/ ١٩ ، دار العودة / بيروت ، ط ١٩٧٩م.

النفس الإنسانية ينشئ فيها استقامة على منهج الله ، الذى يحقق الاستقامة فى السلوك ، بعد أن حققها فى الشعور.. لذا لم يهادن الرسول (ﷺ) فى حسم تلك الانحرافات العقدية.. بل أعلنها ثورة كاسحة عليها.. وجعل القرآن ديدن حديثه تصحيح العقيدة. الذى يتجلى فى قضيتين رئيستين، تجمعان فى طياتهما جميع قضايا هذا الدين : قضية توجيه العبادة لله الواحد ، وقضية اتباع ما أنزل الله فى التحليل والتحريم ... وبكلمة أخرى: محور الإيمان (ويخص الاعتقاد ، ومحور العبودية (ويخص السلوك والعمل) .

وقبل أن نحبس الحديث على المحور الثانى ، الذى يتعلق بالسلوك والنشاط البشرى ، والشعر لون من ألوان ذاك النشاط ، لابد من التريث لإيضاح معنى كلمة "الدين" التى انتهت إلى صورة غائمة ومتداخلة فى مظاهر الشعائر التعبدية. أو أصبحت قاصرة المعنى – فى كثير من الأذهان – على أداء الفرائض التعبدية المعروفة ليس إلا . (فعندما يطلق لفظ (الدين) لا يكاد الناس يتوقفون فى فهمه والمراد من معناه ، فهو عند أكثرهم : ما يتضمن عبادات فئة من الناس ، يلتزمونها فى أداء حق الله عليهم. وما يتبع ذلك من رسوم يقيمونها فى حياتهم ، ومن عقائد يعتقدونها فى ربهم) [1].

والدين : يتضمن معنى الخضوع والذل . فيقال : دنته ، فدان ، أى: أذللته ، فذل. ويقال : يدين الله : أى : يعبد الله ، ويطيعه ، ويخضع له. فدين الله : عبادته ، وطاعته ، والخضوع له. (والدين اسم جامع لكل تصرف يتصرفه المرء المسلم فى حياته ، منذ يستقيظ من نومه ، إلى أن يؤوب إلى فراشه . وفى كل عمل يعمله . مهما اختلفت هذه الأعمال، من أحقرها وأدناها ، إلى أشرفها وأعلاها. كل ذلك دين هو مسؤول عنه يوم القيامة . كما يسأل عن صلاته وصيامه وزكاته وحجه . وإن كان فى بعض ذلك على بعض فضل ، فالدين عندنا هو الحياة كلها) [2].

---

(١) أباطيل وأسمار ، محمود شاكر . ص / ٥٣٢ . مطبعة المدني / القاهرة ، ط ١٩٧٢م.
(٢) أباطيل وأسمار ، محمود شاكر . ص / ٣٢٤.

(وهذا اللفظ الجامع عند المسلمين ، لاينفك عن معنى الخضوع لله سبحانه بالطاعة ، وسلوك السبيل الذى هدى إليها صراطاً مستقيما ، فيما أنزل إلينا من كتابه على نبيه (ﷺ) ، وفيما أمرنا به نبيه (ﷺ) الذى لا ينطبق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى) [١] .

وجعل طاعته شرطاً من شروط الإيمان والإسلام. والقرآن والحديث هما جميعاً الدين الذى رضيه الله لنا ، وأمرنا باتباعه ، والخضوع له ، فيما أحببنا أو فيما كرهنا. وأن ليس لأحد أن يخالف حكماً أنزله الله فى كتابه ، ولا حكما قضى به رسوله فى سنته. سواء كان هذا الحكم قضاء فى أمور الناس ، وهو الشريعة. أو قضاء فى أخلاق الناس، وهو الآداب . أو قضاء فى الخضوع لله بالقلب والجوارح واللسان ، وهو العبادة) [٢].

والعبادة بمعناها الشامل : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ... وأسباب تحقيقها عبادة ... ويتجلى معنى العبادة – التى هى غاية الوجود الإنسانى – أوسع وأشمل من مجرد الشعائر. وحقيقة العبادة تتمثل فى أمرين اثنين ، الأول : هو استقرار معنى العبودية لله فى الضمير ، والثانى : التوجه إلى الله تعالى بكل حركة فى الضمير والجوارح ، وفى كل حركة فى الحياة. (قل إن صلاتى ونسكى ومحياي ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت) [٣] . وهذه الحركة يجب أن تتم وفق المنهج الآلهى. فإذا تحققت العبادة تلك ، أضحت الحياة ظلاً لهذا الدين .

إن النطق بالشهادتين صدقاً بداية تحقيق العبودية الحقة. وهذا ما فقهه العرب أصحاب البيان والفصاحة ، وأدركه . إذ علموا أن فى تحقيقهما نزعاً لكل سلطان يزاوله البشر ، من مشيخة القبائل والزعماء والكهان. ورده إلى الله عز وجل. ولذا جابهوا هذا الدين بعنف وصلف

---

(١) النجم / ٧ .
(٢) أباطيل وأسمار ، محمود شاكر ، ص / ٥١٨.
(٣) الأنعام / ١٦٢.

وعناد. لأن حياتهم ستتبدل ، وستكون كلمة الله هى العليا فى كل شأن من شؤون الحياة.

وبما أن الكيان البشرى يمثل وحدة مترابطة ، لا يوزع إلى جسم وروح ، ومشاعر وسلوك . لذا كان هذا الدين وحدة مترابطة لا تنفصل فيه العقيدة عن الشريعة. ولا العبادة عن النشاط الإنسانى.. فتجسد ذلك فى انخلاع كل من دخل فيه انخلاعاً تاماً من الجاهلية ، وتبرأ من كل عقائدها وأعرافها وقيمها وموازينها. وانقاد لأوامر الله تعالى بلا تردد ولا استثناء. وهذا الدين رد معتنقيه إلى مصدر واحد يتلقون منه تصوراتهم وقوانينهم وقيمهم. ولذا تجمع الواحد منهم شعوراً وسلوكاً. إيماناً قلبياً وإحساناً عملياً. وفهموا أن العبادة فى الإسلام (ليست محصورة فى أعمال من الخشوع الخالص كالصلاة والصيام مثلاً ، ولكنها تتناول كل حياة الإنسان العملية أيضاً . وإذا كانت الغاية من حياتنا على العموم (عبادة الله) فيلزمنا حينئذ ضرورة أن ننظر إلى هذه الحياة فى مجموع مظاهرها كلها ، على أنها تبعة أدبية متعددة النواحى. وهكذا يجب أن نأتى أعمالنا كلها – حتى تلك التى تظهر تافهة – على أنها عبادات ، وأن نأتيها بوعى ، وعلى أنها تؤلف جزءاً من ذلك المنهاج العالمى الذى أبدعه الله عز وجل) [1].

ولا يستقر مفهوم العبادة فى أعمال الإنسان وكسبه ، حتى تستقر العقيدة فى القلب.

وعندها تنحل العقد كلها ، وتسير الحياة فى جداول العبودية، [فلما انحلت العقيدة الكبرى – عقدة الكفر والشرك – انحلت العقد كلها، وجاهدهم رسول الله (ﷺ) جهاده الأول ، فلم يحتج إلى جهاد مستأنف لكل أمر أو نهى. وانتصر الإسلام على الجاهلية فى المعركة الأولى ، فكان النصر حليفه فى كل معركة.. وقد دخلوا فى السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم كافة. لا يشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ، محمد أسد ، ص/ ٤٦ ، ترجمة / عمر فروخ . دار العلم للملايين / بيروت . ط ١٩٨٤م.

الهدى. ولا يجدون فى أنفسهم حرجا مما قضى ، ولا يكون لهم الخيرة من بعد ما أمر ونهى] [١] .

من خلال هذه الرؤية العقدية للإنسان وأنشطته وغاية وجوده فى الحياة ، إلى جانب مسؤولية أداة القول (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) [٢] . التى يجب أن يترفع المسلم بها عن اللغو ، إذ إن حياته أغلى وأسمى من أن تزهق به (والذين هم عن اللغو معرضون) [٣] . ولأنه لون من ألوان الكسب ، ويقع كسب العبد بقلبه ولسانه وجوارحه ، والكسب صنفان : كسب طيب ، وكسب خبيث ، وكلاهما نتاج عمل وجهد ، بل إن الإيمان لا يستقيم حتى يستقيم القول ، كما ورد فى الحديث الذى رواه أنس بن مالك ، عن رسول الله (ﷺ) : " لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه...." [٤] [ومن علم – رحمك الله – أن كلامه من عمله ، قلّ إلا فيما ينفعه] من خلال هذه الرؤية ننظر إلى الفن الشعرى . [٥]

وانفعال اللسان عن القلب أتم من انفعال سائر الجوارح ، فإنه ترجمانه ولسانه. والجانب الانفعالى العاطفى مقوم أساسى من الدين، بل ركن مكين من أركان العبودية – خلافاً للعرض الجاف الخالى من العنصر العاطفى – لما له من دور فعال ، ودافع محرك لتحقيق معنى العبودية فى سلوك المرء ونشاطه . إذ يحرك الرغبة فى القلب ، ويقوى الإرادة عنده . فيتحرك لتحقيق هذه الإرادة ، ولذا كانت المحبة علامة العبودية الحقة.

والانفعالات المتولدة فى الصدور ، تهيج فى محضن مترع بالتصورات والأفكار ، فيصبغ ذلك المحضن هذه الانفعالات بصبغته ،

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص/ ٨٧ .
(٢) ق / ١٨.
(٣) المؤمنون / ٣.
(٤) مسند أحمد برقم / ٢٨٤١. تحقيق / شعيب الأرناؤوط وإخوانه. مؤسسة الرسالة / بيروت ط ١٤١٩هـ. وسلسلة الأحاديث الصحيحة ، للألبانى برقم / ٨٢٢ . مكتبة المعارف / الرياض ، ط ١٤١٥هـ.
(٥) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة / ١٨٩. بتحقيقنا . الرسالة ودار البشير / الشارقة ، ١٤ هـ.

ثم ترتد تلك التجربة إلى الخارج فى صورة تعبير فنى ، يمثل انعكاس الحياة فى نفسه المفعمة بالعقيدة ، التى ترفد عملية الإبداع الشعرى. فيصوغ على وحيها قصائده ، ويعالج فى مساحتها أفكارها. ويصوغ على وهجها صورها وأخيلتها ، وما يسمى الجانب العفوى فى بناء القصيدة ، لا يفلت من رباط العقيدة ، لأنها ليست مستعارة ، وإنما أشرب القلب بمفهوماتها وسبيل تحركها وغاياتها . وكل إطراب تلمسه فى العملية الشعرية ، يجنح به الشاعر عن درب عقيدته القاصد ، لا يرد إلا إلى عدم تمكن العقيدة فى صدره ، أو أن الدخن لابسها وهو ينهل لإبداعه، وكذلك الخيال المنطلق من تلك الانفعالات الصادقة ، عبر المذخور العقدى ، الذى يشحن هذه الانفعالات ، لا يمكن إلا أن يكون صادقاً ، لأن الشعر – كما هو معلوم – تفاعل نفسى مع الإيمان القار فى القلب ، واللسان يغترف منه ، ويصدره ، ولكن بأسلوب فنى ماتع مؤثر.

فثمة هواتف من أعماق الضمير توجه الإنسان ، وتلزم يراعه أن ينزف شعره من ينبوع الوجدان ومتطلبات العقيدة.

ومنا هنا كان الدين يمثل قاعدة نفسية وشعورية وفكرية لأى إبداع شعرى ... وكانت هذه القاعدة نافذة وفاعلة فى نتاج الشعراء. والشعر يتبع مكنونات الضمير وتحولاته الشعرية ، ولا ينفك عن المخزون الفكرى ، بل يمتح منه . وكل محاولة للفصل بين الشاعر وإبداعاته الفنية ، هو فصل بين الروح والجسد ، بين النبع وما يترقرق منه. أو فى الأقل تكريس لمنهج النفاق والتلون... فالشعر انتماء فكري ، ووليد شرعى لعقيدة الشاعر ، وإن كان عصارة الطاقات الفنية لدى الشاعر ، إلا أنه عصارة العقيدة قيماً ورؤى ، وهل الشعر إلا عقول الشعراء توافت على ألسنتهم ، وألسنتهم قطعة من عقولهم. وما فائدة العقيدة التى تعجز عن صبغ سلوك معتنقيها وأقوالهم ومشاعرهم بصبغتها. والكلمات ليست مجرد ألفاظ ، بل ما تحمله ، وما تصرف إليه فى وجوه كثيرة تحمل من الإصلاح قدراً عميقاً ، أو من الفساد قدراً عظيماً ... وما قولك بشعر يتحدر من وراء جوانح مترعة بفاسد العقائد، ومنكرات الهواجس ؟! أيكون من الطيبات أم من الخبائث ؟! إنه لم

يتحرك إلا فى سبيل الضلالة والحيرة والهوان . وحسبه أنه إفساد للكلمة، وشد للانحراف ، وصد عن سبيل الهدى.

ولا تنس أن شعراء مكة ومن ظاهرهم ، أصلوا النبى (ﷺ) ودعوته بنيران الهجاء والسباب ، وبسطوا له ولمعجزته الخالدة أيديهم وألسنتهم بالسوء. إذ كانوا لسان الدفع والمقاومة والهجوم على الإسلام ونبيه . وكان للشعر قيمة وسيرورة فى القبائل العربية ، وتأثير فى نفوسهم ، وتفاعل معها ، وقدرة على استثارتهم وتأليبهم، فرموا الرسول (ﷺ) عن قوس واحدة ... احتدمت المعركة بين الإسلام وخصومه ، وكان السلاح فيها – بداية – بنيران البيان والبلاغة. فصدت الناس عن دين الله تعالى. وأرادت للحياة أن تبقى على عوجها وانحرافها ، كى تبقى مآربهم محققة ، وشهواتهم ونزواتهم قائمة ، وهذا ديدن الظالمين (ألا لعنة الله على الظالمين ، الذين يصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجاً ، وهم بالآخرة هم كافرون) [1] . فقد نذر هؤلاء أنفسهم لأداء هذه الوظيفة، ولا تدرى كم كان خطيراً ومعوقاً للدعوة ! لأنه صادر عن قوم النبى (ﷺ) ، الذين يقومون بسدانة الكعبة والاحتفال بالحجيج ، بل إنهم يمثلون الجانب الديني فى جزيرة العرب. وما كان هذا الموقف يشجع المدعوين على الدخول فى عقيدة رجل ، تقف منه عشيرته هذا الموقف، وخاصة فى بيئة قبلية ، تقيم لعلاقات القرابة وزناً كبيراً .

فى هذه الساحة نزلت تلك الآيات – وغيرها – التى خصت بالحديث عن الشعر والشعراء ، فكانت فيصلاً وبياناً عن كل العلائق بين هذا الدين وبين الشعر والشعراء. وإن وردت اللفظة فى سياقات شتى. فقد وردت فى ست آيات من الكتاب الكريم ، وهى :

- (بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه ، بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) [2].
- (وما علمناه الشعر ، وما ينبغى له ، إن هو إلا ذكر وقرآن كريم)[3].

---

(١) هود / ١٨ – ١٩.
(٢) الأنبياء / ٥ .
(٣) يس / ٦٩.

- (ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) [1].
- (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) [2].
- (وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون) [3].
- (والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيرا ، وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) [4].

نرى فى الآيات السابقات – ما عدا الأخيرة من سورة الشعراء – دحضاً لافتراءات القوم ، أن القرآن شعر ، وأن الرسول شاعر. فهى تنطق بتنزيه القرآن أن يكون شعراً ، أو من ألوان الشعر. وتؤكد نفى صفة الشعر عن رسول الله (ﷺ) وهذا التنزيه والنفى لا يرمى إلى الطعن في الشعر ، أو نقص من قيمته . وإنما هو تبيان الحق ، الذي لا مرية فيه ، أن هذا الذي يتلوه الرسول (ﷺ)عليكم ، إنما هو قرآن منزل من عند الله تعالى. وليس مما عرفه القوم من الشعر والكهانة. وإن كان لا يخفى عن أرباب القول وغيرهم أن القرآن ليس منهما فى شىء. فهو قول غير معهود فى لغتهم ، ولا على ألسنة فصحائهم وشعرائهم وكهانهم، وما كان هؤلاء الذين يسمعون القرآن من الرسول (ﷺ) من الغفلة بحيث لا يفرقون بينه وبين الشعر ، بل هو ما أقرت به ألسنتهم – مع ما هم عليه من كفر وعناد وتكذيب – بعد أن قر فى صدورهم ، وهم كارهون ، [فلما جلس – عتبة بن ربيعة – إليهم – زعماء مكة – قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ - وكان عرض على رسول الله (ﷺ) المال والسيادة والملك والطب ، فأسمعه الرسول (ﷺ) آيات من سورة فصلت – قال : ورائى أنى قد سمعت قولاً ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة . يا معشر قريش ، أطيعونى

---

(١) الصافات / ٣٦.
(٢) الطور / ٣٠.
(٣) الحاقة / ٤١
(٤) الشعراء / ٢٢٤ – ٢٢٧.

واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه . فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم. وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم. وكنتم أسعد الناس به. قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم] [1].

وإنما كانت فريتهم تلك طرفاً من الحرب الدعائية التى أعلنوها على الدين الإسلامي ورسوله فى أوساط القبائل العربية. معتمدين فيها على جمال الصياغة القرآنية ، وعظم تأثيرها فى النفوس ، وهزها لمشاعر السامعين ، بل وغلبتها على إرادتهم من حيث لا يملكون لها رداً. وقد ضلل الكثير بمثل هذه الأكاذيب.

والله عز وجل لم يعلم نبيه الشعر ، وإذا لم يعلمه فلن يعلم. بل لا يليق مع جلال النبوة ، وخطورة مهمتها. ورحم الله صاحب دلائل الإعجاز عندما قال : (ولو كان – وما علمناه الشعر – منع تنزيه وكراهة، لكان ينبغي أن يكره له سماع الكلام موزوناً ، وأن ينزه سمعه عنه كما نزه لسانه. ولكان (ﷺ) لا يأمر به ، ولا يحث عليه . وكان الشاعر لا يعان على وزن الكلام وصياغته ، ولا يؤيد فيه بروح القدس). والجواب لمن أراد أن يجعله حجة فى المنع من الشعر ، ومن حفظه وروايته. ذاك انا نعلم أنه (ﷺ) لم يمنع الشعر . من أجل أن كان قولاً فصلاً ، وكلاماً جزلاً، ومنطقاً حسناً ، وبياناً بيناً ؟ وذلك يقتضى أن يكون الله تعالى قد منعه البيان والبلاغة ، وحماه الفصاحة والبراعة ، وجعله لا يبلغ مبلغ الشعراء فى حسن العبارة ، وشرف اللفظ. وهذا جهل عظيم ، وخلاف لما عرفه البلغاء ، وأجمعوا عليه ، من أنه (ﷺ كان أفصح العرب) [2]. والجاهليون هؤلاء يعرفون مناهج الشعر الانفعالية المتقلبة ، بل كانوا يعزون عملية الإبداع الشعرى إلى ما أسموه (شيطان الشعر ، أو شيطان الشاعر) . فهو الذى يلهمه الشعر . (ألا ترى العرب كيف نسبوا النبى ﷺ إلى الشعر لما غلبوا ، وتبين عجزهم ؟ فقالوا : هو

---

1) السيرة النبوية ، لابن هشام ٢٩٤/١.

2) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ، ص/ ٢٥ – ٢٧ . تحقيق / محمود محمد شاكر. مطبعة المدني ، القاهرة . ط ١٤١٠هـ.

شاعر. لما فى قلوبهم من هيبة الشعر وفخامته) [1] . ولذا ترددوا بين اتهام الرسول (ﷺ) أنه مرة شاعر ، ومرة كاهن وساحر ، ومرة مجنون ... [قال ابن إسحاق: ثم إن قريشاً اشتد أمرهم للشقاء الذى أصابهم فى عداوة رسول الله (ﷺ) ومن أسلم معه منهم ، فأغروا برسول الله سفهاءهم ، فكذبوه وآذوه ، ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ورسول الله (ﷺ) مظهر لأمر الله لا يستخفى به ...] [2] . وإن كانت هذه الفرى قد سبقهم إليها سلفهم المكذبون ، من خصوم الأنبياء السابقين. [كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ، أتواصوا به بل هم قوم طاغون] [3] . ولكن لم يرموهم بالشعر. لأن معجزاتهم المادية صرفت أنظارهم إلى السحر ، الذى هو لون من ألوان الإيحاء والتأثير فى الحواس والأفكار. وإن لم تكن الآية تلك من جنس السحر ، بل إزهاق لدعوى السحر أمام الجمهور ، وبيان لأكاذيب المفترين. وما إيمان السحرة عنا ببعيد . وما رمى الخصوم لرسول الله (ﷺ) بالسحر إلا لشدة تأثير ما جاء به القرآن فى نفوس السامعين. لأن أصل السحر فى كلامهم الصرف ، وكذلك الشاعر بشعره يصرف قلوب السامعين إلى قبول قوله، وإن كان غيره حقاً . وقد يحيل الشىء عن ظاهره ببيانه ، ويزيله عن موضعه بلسانه ، وإرادة التلبيس عليهم . فيصير بمنزلة السحر الذى هو تخييل لا حقيقة له.. وإن كان بين السحر والشعر والجنون ما يجمع بينهم فى أنظار القوم . فقد كان شائعاً بينهم أن الكهان والسحرة يتلقون عن الشياطين – وهو حق – والشيطان يتخبط بعض الناس ، فيصابون بالجنون. والشاعر بزعمهم يمده الشيطان ببديع القول وفائقه . فالشيطان هو الفاعل المشترك بينهم. وحملهم على تلك الفرى موقفهم مبهوتين أمام بلاغة القرآن الكريم ، وروعته المعجزة ، إذ أسمعهم من القول ما لم يعهدوه وهم أهل القول. ولما كانوا لا يريدون – لعل فى نفوسهم ، ومرض فى قلوبهم ، وضلال ران عليهم – أن يعترفوا أنه من عند الله، التمسوا علاً واهية ليبرروا هزيمتهم. فادعوا أن

---

(١) البلغة في أصول اللغة ، محمد صديق خام . تحقيق / نذير محمد مكتبي ، ص/٣٢٠ . دار البشائر / بيروت . بدون تاريخ.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢٨٩/١.

(٣) الذاريات / ٥٢ ، ٥٣.

مصدره المتفوق على بلاغتهم وفصاحتهم ، بل على البشر جميعا، فقالوا: إنه من إيحاء الشياطين. فصاحبه كاهن يتلقى منهم ، أو ساحر يستعين بهم ، ويمدونه بعلم ما وراء الواقع ، كما كانوا يعتقدون. أو شاعر له رئى من الجن ، يأتيه بالقول الفائق.

وقد تكون تلك الطرفة التى تناقلها المجتمع الجاهلى ، أن للشاعر شيطاناً يلهمه ويعينه على قول الشعر ، منقولة إلى هذا الموحى بالشعر، نقل بها إلى شيطان بدلاً من "جني" أو كائن يقاربه. وإن كان هذا القول ينتهى فى زعمهم إلى أن الموحى بالقرآن إلى النبى (ﷺ) شيطان كشياطين أولئك الشعراء القدماء. (وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين) [1].

وخفى أو غاب عن مدارك المشركين الذين اتهموا رسول الله (ﷺ) بأنه شاعر ، أن هناك بوناً شاسعاً بين القرآن والشعر ، وخاصة ذاك الشعر الذى تناقله الرواة ، ويطربون به مجالسهم. كالذى كان يلقيه النضر بن الحارث على الغواة فى أندية مكة ، ليصرفهم به عن سماع القرآن.

(فالخلاف بين القرآن والشعر خلاف بين هدفين ، خلاف بين طريقتين ، هدف القرآن الهداية فى ضوء المثل التاريخي الصحيح، والموحى هو رب الخلق ، الذى يعلم الماضى والحاضر ، وما يستقبل، مما يطويه الغيب على الإنسان. وهدف الشاعر التنفيس عن انفعال فعال جياش بماض جليل ، يناوح حاضراً جماعياً طاغياً ، فالشاعر يتشبث من الماضى بهدب ، ومن المستقبل بغيب ، يعز عليه تحصيله. وكلا هذين يتعانقان فى خاطره وفى خياله ، فيستنجد من حقائق الماضى بالذكرى. ومن التطلع إلى المستقبل الغامض بالخيال. والتداعى القائم بين الخبر فى عقله وخاطره ، وبين التطلع فى خياله وتصوره. فخيال الشاعر استلهام منه لنبع قائم فيه ، هو شعوره الروحى. والوحى يقدم لك الحقائق

---

(١) الشعراء / ١٩٢ ـ ١٩٥.

والأخبار صادقة صافية ، بعيدة عن الكذب الفنى ، الذى يتمغط به الشعر) [1] .

أضف إلى ذلك أن القرآن يمضى فى تناول الأمور سريعاً مركزاً. فلا إسهاب ولا تخييل ولا تهويل على طريقة الشعر. كما يخالف الشعر فى طريقة التناول ، ويفارقه بجوه الجدي الوقور ، الذى يتخلق فيه الموضوع . وفى نبذ الحواشى وأساليب الزينة الخارجية. ويفارقه بروح كامن متجدد ، كلما عاودت النظر فى آياته ، زادك من فيضه عطاء فوق عطاء. تسمع الآية من آية ، أو تقرأها كل يوم ، فلا تكف لحظة عن الرقة لهما.

أما الشعر فله أوزان منتظمة ، تسير على قياس لا يضطرب – فى الشعر الجاهلى – ولو تهاون فيه الشاعر اختل ، ولم يصبح – فى عرفهم – شعراً . وللقرآن موسيقى ، لكنها ليست حبيسة الأوزان.

والأهم من ذلك ما جاء به القرآن ، ليبين أن منهجه غير منهج الشعراء ، ومنهج الشعر أصلاً (فإن هذا القرآن يستقيم على نهج واضح، ويدعو إلى غاية محددة ، ويسير فى طريق مستقيم إلى هذه الغاية. والرسول (ﷺ) لا يقول اليوم قولاً ينقضه غداً . ولا يتتبع أهواء وانفعالات متقلبة. إنما يصر على دعوة ، ويثبت على عقيدة. ويدأب على منهج لا عوج فيه . والشعراء ليسوا كذلك. الشعراء اسرى الانفعالات والعواطف المتقلبة... هذا إلا أنهم يخلقون عوالم من الوهم يعيشون فيها ويتخيلون أفعالاً ونتائج ، ثم يخالفونها حقيقة واقعية ، يتأثرون بها. فيقل اهتمامهم بواقع الأشياء ، لأنهم يخلقون هم فى خيالهم واقعاً آخر يعيشون عليه. وليس كذلك صاحب الدعوة ، الذى يريد تحقيقها فى عالم الواقع، ودنيا الناس. فلصاحب الدعوة هدف ، وله منهج ، وله طريق. وهو يمضى فى طريقه على منهجه إلى هدف مفتوح العين ، مفتوح القلب ، يقظ العقل ، لا يرضى بالوهم ، ولا يعيش بالرؤى ، ولا يقنع بالأحلام، حتى تصبح واقعاً فى عالم الناس) [2].

---

(١) المعلقة العربية ، لنجيب محمد البهبيتي ، ١ / ٢٧٢. دار الثقافة / الدار البيضاء ، ط ١٤٠١هـ.
(٢) في ظلال القرآن ، سيد قطب . ٢٦٢١/٥ ، دار الشروق / القاهرة . ط ١٤١٧هـ.

ولذا كان التأكيد بصيغة قاطعة ، أن ما جاء به الرسول (ﷺ) من كلام الله تعالى ، ليس بقول شاعر (وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون)[1]. وما فى نفى الشعر عن رسول الله (ﷺ) من عيب للشعر ، ولا دعوة للزهد فيه ، أو الغض من مكانته ودوره. وكونه (ﷺ) غير شاعر لا يغض من الشعر.

كما أن أميته لم تكن غضاً من الكتابة. ذكر صاحب العقد الفريد، (أن المأمون قال لأبى على ، المعروف بأبى يعلى المنقرى : بلغنى أنك أمي ، وأنك لا تقيم الشعر ، وأنك تلحن فى كلامك ، فقال : يا أمير المؤمنين : أما اللحن ، فربما سبقنى لسانى بالشىء منه. وأما كسر الشعر، فقد كان النبى لا يكتب ، وكان لا يقيم الشعر. قال المأمون: سألتك عن ثلاثة عيوب فيك ، فزدتنى عيباً رابعاً ، وهو الجهل. يا جاهل ! إن ذلك فى النبى فضيلة ، وفيك وفى أمثالك منقصة. وإنما منع ذلك النبى لنفى الظنة عنه . لا لعيب فى الشعر والكتابة. وقد قال الله تعالى : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون)[2]. فنفى الشعر عن الرسول (ﷺ) ، وأن يكون شاعراً علم من أعلام نبوته (ﷺ) ، لئلا تدخل الشبه على من أرسل إليهم . فيظن أنه قوى على القرآن. بما فى طبعه من القوة على الشعر. وإن كان ما لا ينبغى له إنشاؤه لا إنشاده.

أما الآيات التى بينت موقف القرآن الكريم من الشعر والشعراء، فهى أواخر سورة الشعراء. إذ فضحت الأمر ، وأسفرت عن تصنيفها للشعراء ، بعد أن سبقها حديث طويل ، يمت بأكثر من صلة بهن . فكانت فاتحة سورة الشعراء قوله تعالى : (طسم ، تلك آيات الكتاب المبين ، لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين (٣) . ثم توقف عند أحداث قصة موسى عليه السلام مع قومه وفرعون والسحرة ، وكيف انقلب السحر عليهم ، وآمن السحرة . ثم ينتقل إلى الحديث عن نبى الله إبراهيم عليه السلام وقومه. ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام

---

(١) الحاقة / ٤١.

(٢) العنكبوت / ٤٨ . العقد الفريد . ٢٩٨/٣.

وأقوامهم. مبرزاً تكذيبهم لأنبيائهم ، ورميهم بألوان من المفتريات، التى تصرف وجوه الناس عنهم. ولكن النهاية عظيمة. إذ كان النصر حليفهم، والخذلان والخزي لمن نازعهم فى الدنيا والأخرة .. ولا تخفى تلك المفاصل الأساسية فى سورة الشعراء ، وهى تأخذ بحجز المواقف منها إلى موضوع واحد ، وغاية كبرى. وهى إبراز موقف الشعراء من رسول الله (ﷺ) ، ومحاولاتهم صد الناس عن دعوته. والنيل من القرآن الكريم . صداً عن سبيل الله تعالى. وصرفا للناس عن الاستماع للهدى واتباعه . ثم إبراز مآلهم ومآل من اتبعهم ، من خلال جزاء المكذبين السابقين ، أعداء الأنبياء ، وخصوم المرسلين.. ومن ثم ليؤكد حقيقة هذا الكتاب الكريم. داحضاً مزاعم القوم ، أنه من إلهام الشياطين ، الذين لا ينبغى لهم ذلك ، كما لا ينبغى الشعر للرسول (ﷺ).

فالشياطين تنزل على أوليائها من الكذبة الفجرة. أورد الإمام الطبرى خبراً عن أبى إسحاق ، عن سعيد بن وهب ، قال : كنت عند عبدالله بن عمر رضى الله عنه ، فقيل له : إن المختار يزعم أنه يوحى إليه. فقال : صدق. ثم تلا (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفاك أثيم). وقال مجاهد : الشياطين ما سمعته ألقته على كل أفاك كذاب.) [1]. كما أنها تعتزل أولياء الله من الرسل والمتقين .. ولعل فى تقديم قصة موسى علماً على إزهاق باطلهم الذى قدموه بين أيديهم، وهو السحر ، لدفع دعوة موسى عليه السلام. ولربط هذا بتلك الفرية التى رمى بها رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام أنه ساحر.

ثم تتوالى الآيات لتصل إلى قوله تعالى (وبرزت الجحيم للغاوين، وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون ، من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون، فكبكبو ا فيها هم والغاوون ، وجنود إبليس أجمعون) [2] . وليكن منك على بال ذكر كلمة (الغاوين) مرتين. لترى هنا العلاقة الواشجة بين إبليس والشعراء الذين يتولونه. إذ لا يتولاه إلا كل معتد أثيم مجرم. ولا سبيل له على أولياء الرحمن (إن عبادى ليس لك عليهم

---

(١) تفسير الطبري المسمى (جامع البيان عن تاويل أي القرآن) ، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري . ٤١٤/١٩. دار التربية والتراث / مكة . بدون تاريخ.

(٢) الشعراء / ٩١ – ٩٥.

سلطان، إلا من اتبعك من الغاوين) [1]. (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) [2]. فإذا كان الغاوون ، هم أتباع الأهواء والشهوات ، المزايلون للحق ، الباغون على الناس ، بصدهم عن سبيل الله ، وتشقيق سبل الغواية والضلال أمامهم ، لأنهم يبغونها عوجاً. سيكبكبون في النار مع معبوداتهم وأنصارهم وأوليائهم وجنودهم ، فكيف حال قادتهم من شياطين الإنس والجن ، ومن الشعراء الذين استحوذ عليهم الشيطان ؟!

إن العلاقة بين الشيطان والغواة علاقة ولاية ومظاهرة ، اتباعاً وتزييناً للباطل. (والولاية هي المحبة والموافقة. كما أن العداوة هي البغض والمخالفة ، فالمتولون له يحبون ما يحبه الشيطان ويوافقه ، فهم مشركون به ، حيث أطاعوه وعبدوه بامتثال أمره ، كما قال تعالى : (ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم)[3]). وفي هذه الطاعة والعبادة والهوى اقتراف ألوان من الظلم والإثم والبغي بغير الحق ، وهؤلاء هم أعداء رب العالمين. كل ذلك ليكون أمر هذا القرآن بيناً في أذهان القوم ، فالقرآن من رب العالمين ، اصطفى من ملائكته جبريل عليه السلام ، لحمله إلى رسول الله (ﷺ) ، أما ما ورد في تلك الأشعار القديمة، فهو استراقات سمعية مضخمة ، أو صرف أكاذيب ، يوحى بها الشياطين لأوليائهم من الشعراء ، مع ما يزمزم به الكهان ... وكل ذلك سماه القرآن أساطير الأولين.

فالشعراء الموالون للشياطين ، المعادون لرب العالمين ، تتنزل عليهم الشياطين. لأنهم مخادع الكذب والبهتان ، ولا يتبعهم إلا من ضل السبيل. وليس كل الشعراء أتباع الشياطين وإخوانهم . بل هناك شعراء لهم شأن آخر ، وسبيل آخر ، ودور آخر . (والشعراء يتبعهم الغاوون ،

---

(١) الحجر / ٤٢.
(٢) النحل ، ٨٩ ـ ١٠٠.
(٣) يس / ٦٠ ـ ٦١ ، جامع الرسائل ، لابن تيمية ٢/ ٢٦٣، تحقيق / محمد رشاد سالم. مطبعة المدني / القاهرة . ط ١٤٠٥هـ .

ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيراً ، وانتصروا من بعد ما ظلموا، وسيعلم الذين ظلموا أى مقلب ينقلبون) [1] . لنترك الحديث الآن لأئمة المفسرين ، فليقولوا كلمتهم فى تفصيل معنى تلك الآيات : قال أبو جعفر (الطبري) : إن شعراء المشركين يتبعهم غواة الناس ، ومردة الشياطين ، وعصاة الجن ، وذلك أن الله عمَّ بقوله : (والشعراء يتبعهم الغاوون) فلم يخصص بذلك بعض الغواة دون بعض . فدلك على جميع أصناف الغواة ، التى دخلت فى عموم الآية ... قوله : (ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون) يقول تعالى ذكره : ألم تر يا محمد أنهم – يعنى الشعراء – فى كل واد يذهبون ، كالهائم على وجهه ، على غير قصد ، بل جائراً على الحق ، وطريق الرشاد ، وقصد السبيل. وإنما هذا مثل ضربه الله فى افتتانهم فى الوجوه التى يفتتنون فيها بغير حق ، فيمدحون بالباطل ، ويهجون آخرين كذلك بالكذب والزور.

وذكر أن الاستثناء (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ....) نزل فى شعراء الرسول (ﷺ) ، كحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، ثم هو لكل من كان بالصفة التى وصفه الله بها.

قال أبو جعفر : إن الله وصف هؤلاء الذين استثناهم من شعراء المؤمنين بذكر الله كثيراً ، ولم يخص ذكرهم الله على كل حال دون حال كتابه ، ولا على لسان رسوله . فصفتهم أنهم يذكرون الله كثيراً فى كل أحوالهم ، وانتصروا ممن هجاهم من شعراء المشركين ظلماً بشعرهم وهجائهم إياهم ، وإجابتهم عما هجوهم به) [2].

أما الزمخشرى ، فيقول : إنه لا يتبعهم على باطلهم وكذبهم وفضول قولهم ، وما هم عليه من الهجاء ، وتمزيق الأعراض ، والقدح فى الأنساب ، والنسيب بالحرام ، والغزل والابتهار ، ومدح من لا يستحق المدح ، ولا يستحسن ذلك منهم ، ولا يطرب على قولهم إلا الغاوون والسفهاء ، والشطار . وقيل : الغاوون : الراوون . وقيل:

---

(١) الشعراء / ٢٢٤ – ٢٢٧.
(٢) تفسير الطبري ، ١٩ / ٤١٨ وما بعدها.

الشياطين ، وقيل : هم شعراء قيس : عبدالله بن الزبعرى ، وهبيرة بن أبى وهب المخزومى ، ومسافع بن عبد مناف ، وأبو عزة الجمحي . ومن ثقيف أمية بن أبي الصلت. قالوا : نحن نقول مثل قول محمد ، وكانوا يهجونه ، ويجتمع إليهم الأعراب من قومهم ، يستمعون أشعارهم وأهاجيهم ... وذكر الوادي والهيوم ، فيه تمثيل لذهابهم فى كل شعب من القول ، واعتسافهم وقلة مبالاتهم بالغلو فى المنطق ، ومجاوزة حد القصد فيه ، حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة ، وأشحهم على حاتم ، وأن يبهتوا البريء ، ويفسقوا التقي.. واستثنى الشعراء المؤمنين الصالحين، الذين يكثرون ذكر الله ، وتلاوة القرآن ، وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر. وإذا قالوا شعراً قالوه فى توحيد الله تعالى ... ومالا بأس به من المعاني ، التى لا يتلطخون فيها بذنب ، ولا يتلبسون بشائنة ولا منقصة ، وكان هجاؤهم على سبيل الانتصار ممن يهجوهم.

وعن عمرو بن عبيد ، أن رجلاً من العلوية ، قال له : إن صدري ليجيش بالشعر ، فقال : فما يمنعك منه فيما لا بأس به .....

والقول فيه : أن الشعر باب من الكلام ، فحسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام) [1].

أما صاحب روح المعانى ، فيقول : (والشعراء يتبعهم الغاوون...) مسوق لتنزيهه عليه الصلاة والسلام أيضاً عن أن يكون – وحاشاه – من الشعراء. وإبطال زعم الكفرة أن القرآن من قبيل الشعر، والمتبادر منه الكلام المنظوم المقفى .... ولا يخفى على الأغبياء من العجم، فضلاً عن بلغاء العرب ، أن القرآن الذي جاء به (ﷺ) ليس على أساليب الشعر ، وهم ما قالوا فيه عليه الصلاة والسلام شاعر إلا لما جاءهم بالقرآن...

والقرآن يجاريهم ويسلك مسلكهم ، ويكون من جملتهم الغاوون الضالون عن السنن الحائرون فيما يأتون وما يذرون ، ولا يستمرون على وتيرة واحدة فى الأفعال والأقوال والأحوال ، لا غيرهم من أهل

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل ، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، محمود بن عمر الزمخشرى . ١٣٣/٣ ، دار الفكر / بيروت ، بدون تاريخ.

الرشد ، المهتدين إلى طريق الحق ، الثابتين عليه .... ألم تر أن الشعراء في كل واد من أودية القيل والقال ، وفي كل شعب من شعاب الوهم والخيال ، وفي كل مسلك من مسالك الغي والضلال ، يهيمون على وجوههم ، ولا يهتدون إلى سبيل معين من السبل ، بل يتحيرون في سباسب الغواية والسفاهة ، ويتيهون في تيه الصلف والوقاحة ، ديدنهم تمزيق الأعراض المحمية ، والقدح في الأنساب الطاهرة السنية ، والتسيب بالحرم ، والغزل والابتهار. والتردد بين طرفي الإفراط والتفريط في المدح والهجاء ...

(إلا الذين آمنوا ...) استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين ، الذين يكثرون ذكر الله عز وجل ، ويكون أكثر أشعارهم في التوحيد والثناء على الله سبحانه وتعالى. والحث على الطاعة والحكمة والموعظة والزهد في الدنيا، والترهيب من الركون إليها ، والاغترار بزخارفها، والافتتان بملاذها الفانية ، والترغيب فيما عند الله تعالى... والمستثنى شعراء المؤمنين الذين كانوا ينافحون عن رسول الله (ﷺ) ، ويكافحون هجاة المشركين) [1].

ونختم بقول صاحب (في ظلال القرآن) : [والشعراء يتبعهم ... فهم يتبعون المزاج والهوى ، ومن ثم يتبعهم الغاوون الهائمون مع الهوى، الذين لا منهج ولا هدف. وهم يهيمون في كل واد من وديان الشعور والتصور والقول ، وفق الانفعال الذي يسيطر عليهم في لحظة من اللحظات تحت وقع مؤثر من المؤثرات.

(وهم يقولون مالا يفعلون..) لأنهم يعيشون في عوالم من صنع خيالهم ومشاعرهم ، يؤثرونها على واقع الحياة الذي لا يعجبهم . ومن ثم يقولون أشياء كثيرة ولايفعلونها. لأنهم عاشوا في تلك العوالم الموهومة، وليس لها واقع ولا حقيقة في دنيا الناس المنظورة ....

(إلا الذين آمنوا ..) فهؤلاء ليسوا داخلين في ذلك الوصف العام. هؤلاء آمنوا فامتلأت قلوبهم بعقيدة. واستقامت حياتهم على منهج ،

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني محمود الآلوسي . ٢١٨/١١. وما بعدها. دار الفكر / بيروت . ط ١٤١٧ هـ.

وعملوا الصالحات ، فاتجهت طاقاتهم إلى العمل الخير الجميل ، ولم يكتفوا بالتصورات والأحلام ، وانتصروا من بعد ما ظلموا. فكان لهم كفاح ينفثون فيه طاقاتهم ! ليصلوا إلى نصرة الحق الذى اعتنقوه) [1].

وللشريف الرضي كلمة رائعة تدور فى فلك تلك الآيات ، يقول: (والمراد بها – والله أعلم – أن الشعراء يذهبون فى أقوالهم المذاهب المختلفة ، ويسلكون الطرق المتشعبة. وذلك كما يقول الرجل لصاحبه إذا كان مخالفاً له فى رأى ، أو مباعداً له فى كلام : أنا فى واد وأنت فى واد. أى : أنت ذاهب فى طريق ، وأنا ذاهب فى طريق . ومثل ذلك قولهم: فلان يهب مع كل رياح ، ويطير بكل جناح ، إذا كان تابعاً لكل قائد ، ومجيباً لكل ناعق).

وقيل : إن معنى ذلك تصرف الشاعر فى وجوه الكلام ، من مدح وذم وعتاب ، وغزل ونسيب ، ورثاء وتشبيب. فشبهت هذه الأقسام من الكلام بالأودية المتشعبة ، والسبل المتفرقة . ووصف الشعراء بالهيمان ، فيه فرط مبالغة فى صفتهم بالذهاب فى أقطارها ، والإبعاد فى غاياتها، لأن قوله سبحانه : (يهيمون) أبلغ فى هذا المعنى من قوله: (يسعون، أو يسيرون) . ومع ذلك فالهيمان صفة من صفات من لا مسكة له ، ولا رجاحة معه. وهى مخالفة لذوي الحكم الرزين ، والعقل الرصين [2] . (فظهر أن الشعر ليس مبنياً على أصل ، ولكنه هيمان على غير تحصيل، وقول لا يصدقه فعل. وهذا مضاد لما جاءت به الشريعة ، إلا ما استثنى الله تعالى ...) [3].

والشعراء الذين يحفلون بالصدق والاستقامة كانوا قلة. والشعر الذى يريده القرآن ، هو الشعر المتحدر من قلوب عامرة بالإيمان ، وجوارح استقامت على منهج الله ، وصلحت حال صاحبه ، فصلح بصلاحه. ولا يكون ذلك إلا عن طريق الصدق ، بحيث لا يعبر عما لا

---

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٢٦٢١/٥.
(٢) القرآن بين الحقيقة والمجاز والإعجاز للشريف الرضى . ص / ٢٩ .
(٣) الموافقات للشاطبى ١٢٢/٢. تحقيق / مشهور آل سلمان . دار ابن عفان / السعودية. ط ١٤١٧هـ.

يعتقد ، ولو التزم الشعر بالصدق نظرياً ، وصاحبه بالصدق مع عقيدته عملياً ، لبلغ منزلة عالية ، وارتقى مكاناً سامياً.

فتذهب أقوال المفسرين لهذه الآيات إلى : أن الشعر بين موقفين ، إما أن يكون انتصاراً للحق ، وتعرية للباطل ، وبذلك يكون لوناً من ألوان الجهاد ، وقائله – إن كان من أهل الإيمان ، القائمين بما أمر الله به، الذين يطابق فعلهم قولهم – من المجاهدين فى سبيل الله . وهذا ما أشار إليه الرسول (ﷺ) فى حديث أخرجه الإمام أحمد: (أن كعب بن مالك حين أنزل الله تبارك وتعالى فى الشعر ما أنزل ، أتى النبى (ﷺ)، فقال : إن الله تبارك وتعالى قد أنزل فى الشعر ما قد علمت ، وكيف ترى فيه؟ فقال النبى (ﷺ) : "إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه.") (١).

وتحت عنوان باب (ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه ، وقوله تعالى "والشعراء يتبعهم الغاوون .. أي منقلب يخوضون. ثم يورد حديثاً عن أبي بن كعب ، أن رسول الله قال : (إن من الشعر حكمة) . وفى قوله (ﷺ) ثناء على لون من نتاج الشعراء الذين استثنتهم تلك الآيات. (٢). وما رفع التحرج من قول الشعر من صدور المؤمنين إلا بعد أن عرفوا أن المراد من الآية صنف من الشعراء ، وهم الذين ذكرت الآية أوصافهم . ذكر الإمام الطبرى خبراً عن أبي وهب ، قال: قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : قال رجل لأبي : يا أبا أسامة ! أرأيت قول الله جلّ ثناؤه : (والشعراء يتبعهم الغاوون...) فقال له أبي: إنما هذا لشعراء المشركين ، وليس لشعراء المؤمنين ، ألا ترى أنه يقول: "إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات..." فقال : فرجت عني يا أبا أسامة. فرج الله عنك) (٣).

وإما أن يكون من هؤلاء الشعراء ، الذين لم يلامس الإيمان شغاف قلوبهم المترعة بالهوى والانحراف والفساد ، فلا تثمر إلا

---

(١) مسند الإمام أحمد برقم / ١٥٧٨٥ . وبإسناد صحيح على شرط الشيخين .
(٢) صحيح البخاري برقم / ٦١٤٥.
(٣) تفسير الطبري ١٩ / ٤١٨.

الضلال والإثم والدعوة إليه. إذ هاموا مع انفعالاتهم البائسة ، وأحلامهم الضالة ، غير مبالين فى أي أودية الضلال كانت مراتعهم ، ومع أي زمرة من زمر الباطل رفعوا عقيرتهم ، مع ما هم عليه من نفاق وانفصام بين أقوالهم وأفعالهم . إذ زمامهم الهوى ، وخطامهم الشهوة والنزوة. فحمل عليهم القرآن تلك الحملة الصادقة ، وهم يتعثرون بباطلهم، فى سبلهم المظلمة المعوجة. ولا يخفى مآل من جعل الهوى رائده ، والشهوة قائده. وحسبه أنه تنكب سبيل الوحى، وشاق الرسول (ﷺ) ، واتبع غير سبيل المؤمنين. (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) (١).

فلا يفهم من الآيات أن القرآن يحارب الشعر والفن لذاته. إنما يحارب المنهج الذي سار عليه الشعراء (منهج الأهواء والانفعالات التى لا ضابط لها ، ومنهج الأحلام الموهومة ، التى تشغل أصحابها عن تحقيقها. أما حين تستقر الروح على منهج الإسلام ، وتنضح بتأثراتها الإسلامية شعراً وفناً . وتعمل فى الوقت ذاته على تحقيق هذه المشاعر النبيلة فى دنيا الواقع ، ولا تكتفي بخلق عوالم وهمية تعيش فيها ، وتدع واقع الحياة كما هو مشوهاً متخلفاً قبيحاً ... حين يكون للروح منهج ثابت، يهدف إلى غاية إسلامية. وحين تنظر إلى الدنيا فتراها من زاوية الإسلام ، فى ضوء الإسلام ثم تعبر عن هذا شعراً ، فحسبه هذا فناً يرضاه الإسلام ، ويطالب أصحاب الموهبة ، ألا يغفلوا عن سلاحهم فى معركة العقيدة) (٢).

فالشعر سلاح ماض وفعال فى ساحة الصراعات الناشبة بين الحق والباطل. إذ يقف إلى جانب السيوف والرماح المشهرة فى تلك الميادين.. بل يسبقها فى كل حرب ضروس. إذ يشهر الحق والباطل سلاحاً فى وجه الخصوم يفريهم ويمزقهم. ولم لا وهو ثمرة العقيدة والسلاح الأساس ؟! فسيبقى الشعر أداة فعالة ، تقوم بدورها فى تحريك

---

(١) النساء / ١١٥.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب . ٢٦٢٢/٥ بتصرف.

المشاعر لمظاهرة الحق وأهله. وما غض القرآن من قيمة الشعر لذاته ، وإنما مقت ما مقت منه لمضمناته. وقد تنتاب الغفلة بعض قراء هذه الآيات، فيزعم أنها نالت من الشعراء ، بل حطت من مكانتهم بصياغتها الأسلوبية ، إذ أطلقت لفظ "الشعراء" معرفاً بأل التعريف ، وهى تشمل جنس المذكور ، ثم جاء الاستثناء بعد ذاك التعميم ، مما يفضي إلى الاعتقاد بقلة من جاء بعد الاستثناء. وقليل من يسلم من الحكم الأول.

إن هذه الصياغة الأسلوبية فن معهود فى القرآن الكريم. وقد ورد فيه من الآيات ما التزم هذه الصياغة كقوله تعالى : (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات...) [1]. وقوله سبحانه : (والعصر إن الإنسان فى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)[2]. فهل يحكم بسفالة هذا المخلوق المكرم وخسارته مسبقاً ؟ فيقعده هذا الحكم عن السعي لرفع نفسه ، وتزكيتها وتطهيرها ، كي تحلق فى سماء تلك المكانة التى تليق بالمؤمنين . ونقعد نحن عن واجب الدعوة والبيان، فلا نأخذ بيده لعله يرجع إلى خلقته (فى أحسن تقويم) وننقله إلى ساحة الإيمان والعمل الصالح ، كي ينجو من الخسارة البينة الجسيمة. (فالله عز وجل عم ولم يخص ، وأطلق ولم يقيد. فمن الخصال التي ذم بها الشعراء فى رأيه تكلف الصنعة. والخروج إلى المباهاة ، والتشاغل عن الطاعة. ومناسبة أصحاب التشديق. ونظراً لغلبة المنافسة عليهم، فهم ينصرفون إلى قول الزور ، والفجر بالكذب. وصرف الرغبة إلى الناس ، والإفراط في مديح من أعطاهم ، وذم من منعهم) [3] . والاستثناء في الآية يسقط تلك الدعاوى التي تحمل على الشعر ، أو تقلل من شأنه .

فالشعر ليس مجرد تعبيرات مصكوكة ، أو جمل مرصوصة. ولكنه – إن كان من نتاج هؤلاء الذين استثناهم القرآن الكريم – قيم فكرية ، وتصورات إيمانية . يصوغها الشاعر ، ليعبر عما يكن فؤاده.

---

(١) التين / ٤ – ٦ .
(٢) سورة العصر .
(٣) البيان والتبيين / للجاحظ . ٧٤/٣ . تحقيق / عبدالسلام هارون . مطبعة المدني / القاهرة. ط ١٤٠٨ هـ.

وينقلها للآخرين. كما أنه تنفس فني له غاية ينطوي عليها ، حيث يقوم بأداء الدور المطلوب منه في عمليتي التخلية والتحلية. وهي من الساحات الخطرة ، إذ تتصل بالنفس والوجدان والخيال. وتتدفق فيها عن طريق الكلمة التي تشكل تأثيراً بعيد المدى في النفس. وبكلمة موجزة: إنها مشاركة فعالة في صياغة الحياة وسبلها وفق الصبغة الربانية. فالشعراء الذين وقفوا وراء أداة الاستثناء يحملون رسالة كلمة الله تعالى. رسالة الكلمة الطيبة ، التي تحمل معنى الحياة ، وسعادة الإنسان فيها. وتحمل الدافع لتجسيدها واقعاً عملياً في الوجود ، ليطرد الكلمة الخبيثة وأثرها ، وهي تسعى لإفساد الحياة ، وتجعل هذا الإنسان خدن الرذيلة والفساد والانحطاط.

وما أظن عاقلاً يدرك خطورة الكلمة في الحياة ، ثم يغض من شانها، وخاصة وهي تتهادى في مسالك الهدى. فهي تمثل الجسر الذي يعبر عليه الناس للوصول إلى حقائق الوجود ، وحقيقة دوره في الحياة، وإلى قلوب الناس وعقولهم. فإذا كان للشعر ذاك الدور المؤثر ، فعلى صائغه أن يربأ بنفسه أن يكون فنه مجرد حروف جامدة ، يمضغها اللسان، أو يجري بها القلب. ولا يحث القرآن أتباعه من شداة الحق، وأرباب الكلمة النافذة – متنفلين – على أن يحركوا قلوب العباد بشعرهم، علها تحرك فيها كوامن الخير ، وتوقظ في فطرهم هامد أجهزة الاستجابة للهدى.

وكيف يهمل القرآن الكريم دور الكلمة الشاعرة ، والقصيدة الرائعة، أو يجعلها من نوافل الأعمال . وقد منَّ منزل القرآن الكريم في قرآنه على هذا المخلوق المستخلف بنعمة البيان (خلق الإنسان علمه البيان) (١) . (فمن أعظم نعم الله تعالى ذكره على عباده ، وجسيم منته على خلقه ، ما منحهم من فضل البيان ، الذي به عن ضمائر صدورهم يبينون ، وبه على عزائم نفوسهم يدلون ، فذلل به منهم الألسنة ، وسهل

---

(١) الرحمن / ٣-٤.

به عليهم المستصعب . فبه إياه يوحدون ، وإياه به يسبحون ويقدسون، وإلى حاجاتهم به يتوصلون) [1].

ولهذا (أيقنت أن صورة الإنسان فضله عن القلب واللسان، وأن استحقاقه للفضل ، إنما هو من جهة النطق والعقل) [2].

وبيان العرب أسمى ، إذ خصت لغتهم الكريمة به (فلا بيان أبين، ولا حكمة أبلغ ، ولا منطق أعلى ، ولا كلام أشرف من بيان تحدى به امرؤ قوماً في زمان هم فيه رؤساء صناعة الخطب والبلاغة ، وقيل الشعر والفصاحة والسجع والكهانة ، على كل خطيب منهم وبليغ ، وشاعر منهم وبليغ) [3].

وما من نعمة إلا وعلى الإنسان شكرها. وشكر نعمة البيان تسخيره لنصرة دعوة الرحمن ، وهداية الأنام. فلابد من تجنيد هذه الطاقات البيانية والشعرية فيما يرضى الله تعالى. ويستنفذها في محاريب العبودية الحقة له سبحانه. لابد من الجهاد من أرباب اللسان والشعر والبيان باللسان. أصحاب الكلمة ، التي بقدرتها العجيبة قد تبقى جذوة الإيمان متقدة في الصدور . وبتأثيرها الساحر – إن اكتسبت من صاحبها الصدق – في النفس الإنسانية ، هدماً وبناءً. (فكيف وضع من الشعر عندك ، وكسب المقت منك ، أنك وجدت فيه الباطل والكذب ، وبعض مالا يحسن ، ولم يرفعه في نفسك ، ولم يوجب له المحبة من قلبك، أنه كان فيه الحق والصدق ، والحكمة وفصل الخطاب ، وأنه كان مجني ثمر العقول والألباب ، ومجتمع فرق الآداب. والذي قيد على الناس المعانى الشريفة ، وأفادهم الفوائد الجليلة. وترسل بين الماضي والغابر، ينقل مكارم الأخلاق إلى الولد من الوالد ، ويؤدي ودائع الشرف عن الغائب إلى الشاهد ، حتى ترى آثار الماضين مخلدة في الباقين ، وعقول الأولين مردودة في الآخرين ، وترى لكل من رام الأدب... منارا مرفوعاً ، وعلماً منصوباً ، وهادياً مرشداً ، ومعلماً مسدداً ، وتجد فيه

---

(١) تفسير الطبري ٨/١ .
(٢) العمدة لابن رشيق ٨/١ . تحقيق / محمد محيي الدين عبدالحميد. دار الجيل / بيروت. ط ١٤٠١هـ.
(٣) تفسير الطبري ١٠/١.

للنائي عن طلب المآثر ، والزاهد في اكتساب المحامد داعياً ومحرضاً ، وباعثاً ومحضضاً ، ومذكراً ومعرفاً ، وواعظاً ومثقفاً. فلو كنت ممن ينصف ، كان في بعض ذلك ما يغير هذا الرأي فيك . وما يحدوك على رؤية الشعر وطلبه ، ويمنعك أن تعيبه ،أو تعيب به) [1] .

ألم تهدم الكلمة البانية التي نزلت على رسول الله (ﷺ) ما وقر في النفس الجاهلية من شرك وضلال وآثام، وأقامت مكانه بناء شامخاً على العقيدة والتكوين الطاهر ، وحسب الكلمة الطيبة – والشعر كلمات طيبات ممن استثنى الله تعالى – ثناء الله عز وجل عليها ، ولا تكون الكلمة الطيبة إلا إذا كانت شريفة الدوافع ، سامية الهدف ، ولا تؤتي أكلها إلا إذا كانت طيبة (ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها..) [2].

فالكلمة الطيبة لا ينقطع عطاؤها ، لأنها تنبت في النفوس آناً بعد آن ، فهي متجددة متكاثرة ... كما أن أجرها متجدد متنام ، ولو ذوت بعض الوقت ....

وهل وظيفة الشعراء والبلغاء إلا مهمة الأنبياء ، مهمة البلاغ والأداء ، وحراسة الرشد في الأمة ، وهي تشتغل بمتطلبات العقيدة ، وترابط على ثغورها. تنفي عنها كل خالجة شيطانية. فالشعر – إن كان لسان الصدق – يقوم بهذه المهمة ، يهدي إلى البر ، ويحض على الخير، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي. يغري بالفضائل ويزينها ، وينفر من الرذائل ويقبحها. وهل هذا إلا ضرب من ضروب الجهاد ، سنانه القول ، وقد تفوق أسنة القول أسنة الرماح أو تضاهيها.

ولا ننسى أن الكلمة كانت معجزة الرسول (ﷺ) وآيته الكبرى ، هذه الكلمة المسطورة في القرآن الكريم ، التي تمثل الرسالة المقروءة للعالمين ، والذؤابة البلاغية التي يحاول البلغاء مجاراتها ، بعد أن احتلت مكاناً علياً في قمم التعبير الموحى الجميل. أليس في ذلك رفع لمنزلة

---

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني . ص / ١٥.
(٢) إبراهيم / ٢٤.

الشعر ، حين حمل البيان رسالة الله إلى العالمين قرآناً معجزاً ، وآيات بينات ، ليحتل أعلى مستوى للبيان والتعبير ؟! (وأخبر العالمين على صدق مقالته ، وحجته على حقيقة نبوته ، ما أتاهم به من البيان والحكمة والفرقان ، بلسان مثل ألسنتهم ، ومنطق موافقة معانيه معانى منطقهم)[1]. (فارتفاع مستوى القرآن الجمالى إلى هذا الحد ، إنما أراده الله ليلقى النبي (ﷺ) به تلك المثل البلاغية الكبرى من الشعر الجاهلي، التي كانت سلاحاً من أسلحة القوة في الخصومة والفتن ، التي غلبت قبل الإسلام ، ولولا أن كان هذا المستوى البلاغي للشعر الجاهلي لما تذوق العرب ماله من جمال) [2].

فحتى ذلك الشعر الذي يخيل لكثير ممن تنسكوا نسكاً أعجمياً[3]. [أنه ليس فيه كبير طائل ، وأن ليس إلا ملحة أو فكاهة ، أو بكاء منزل ، أو وصف طلل ، أو نعت ناقة أو جمل ، أو إسراف قول في مدح أو هجاء. أو أنه ليس بشيء تمس الحاجة إليه في صلاح دين أو دنيا... وأنه الجهة التي قامت الحجة بالقرآن وظهرت ، وبانت وبهرت ، هي أن كان على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر ، ومنتهياً إلى غاية لا يطمح إليها بالفكر. وكان محالاً أن يعرف كونه كذلك ، إلا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب ، وعنوان الأدب ، والذي لا يشك أنه كان ميدان القوم إذا تجاروا في الفصاحة والبيان ، وتنازعوا فيهما قصب الرهان، ثم بحث عن العلل التي بها التباين في الفضل ، وزاد بعض الشعر على بعض ، كان الصد عن ذلك صاداً عن تعرف حجة الله تعالى] [4].

كما أن في تلك الأشعار تفسيراً لما تعاجم من القرآن على الدارسين ، لأنها أشعار عربية ، صدرت عن عرب أقحاح.. فيلتمس معنى غريب القرآن في الشعر الجاهلي (فعن عكرمة ، عن ابن عباس

---

(١) تفسير الطبري ١٠/١.
(٢) تاريخ الشعر العربي / البهبيتي . ص / ١١٣. دار الثقافة / الدار البيضاء. ط ١٩٨٢م.
(٣) "قيل لسعيد بن المسيب : إن قوماً بالعراق يكرهون الشعر ، قال : نسكوا نسكاً أعجمياً". العمدة / لابن رشيق ٢٩/١.
(٤) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، ص / ٨/ ٩ .

قال: إذا سألتموني عن غريب القرآن ، فالتمسوه في الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب) [1]. ومن هنا جاء التمسك بديوان العرب.

أما إذا كان الشاعر قد سخر شعره لعملية الإفساد والعبث والتهديم في كيان الأمة ، وغدا بوقاً من أبواق الضلال ، ومنبر زور وبهتان ، يزين الباطل ، وينزع سربال الفضائل ، عند ذلك نقول: (والشعراء يتبعهم الغاوون...) ونصرخ بهم عن الشمال واليمين (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يزرون) [2]. فجماع الخير وأزمته تتفرع من قوله (ﷺ) : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيراً أو ليصمت) [3] . كما أن الإطار القرآني الذي يحيط بالمسلم ، ويضبط نشاط لسانه قوله تبارك وتعالى: (لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً)[4].

وتبقى أمانة الفن الشعري في أعناق المؤمنين من الشعراء. وصلتهم به هي صلتهم بعقيدتهم ، وصلة عقيدتهم بالحياة. فليس أمام الشاعر إلا أن يصدح صادقاً بالحق ، مع وضوح البيان ، وتقى الجنان، ويحفظ لسانه عن النطق بشيء يخالف الحق. فما أجمل وأبلغ إذا ترجمت مشاعر رجل العقيدة إلى صور تعبيرية ، في حلل شعرية ، ذات أثر نافذ في توجيه الحياة ، وتعميق معناها وغايتها. ولا يمكن أن تضيع كلمة الحق، أو تذهب جفاء ، وإن تجافتها الآذان – غفلة أو تنكيراً – ردحاً من الزمان ، فتتبعث في نفوس السامعين ، ولو بعد حين. أما من أراد أن يجمع بين الحق والباطل ، لم يجتمعا له ، وكان الباطل أولى به ، وإن الحق لم يزل ينفر من الباطل ، ولم يزل الباطل ينفر من الحق، وإذا

---

(١) تفسير القرطبي ٢٤/١.

(٢) النحل / ٢٥.

(٣) حديث صحيح مختصر صحيح مسلم للألباني ، برقم / ٣٢ . وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية / الكويت . ط ١٣٩٩هـ . وصحيح الجامع الصغير للألبانى برقم / ١١٠٨. المكتب الإسلامي / بيروت . ط ١٤٠٨هـ.

(٤) النساء / ١١٤.

انحرف الشعر ففتش عن الانحراف العقدي عند صاحبه ، لأنه صورة مما تنزى منه.

وبكلمة أخيرة نلملم بها أطراف البحث ونثبت ما انتهينا إليه: أن الأساس الذي ينشده القرآن في الشعر هو عنصر الصدق ، صدق الشاعر مع نفسه ، وهو يمارس عبادة الله فيما يصوغه من الأشعار ، وصدقه مع عقيدته ، بالتزام السبيل الذي رسمها الكتاب العزيز للشعراء، كي لا تنزع إلى مسارب التيه والضلال ، ويؤدي دوره في صياغة الحياة. لأن القرآن يعتبر الصدق كما رأيت في مطابقة الفعل للقول وهذا هو حقيقة الصدق.

فالقرآن ليس خصماً للإبداع الشعري ، بل هو منشئ له، وراع وموجه ، كي ينهد إلى تحقيق دوره في الحياة. بل نجد حرصاً قوياً على الطاقات المؤمنة أن لا تتبدد في غير صناعة الحياة المؤمنة ، وبناء الإنسان الآمن في الآخرة ، والسعي إلى الإحسان في الأداء مطلب شرعي في كل ذلك.

أما الشعراء الذين جفاهم القرآن ، وحط من شأنهم ، فهم الذين يمثلون صورة الحياة الفارغة من الاهتمامات الجليلة ، فاستهلكوا طاقاتهم الشعرية في الملابسات التافهة.

حيث لم يدركوا أن لهم رسالة في الحياة وللحياة .. فالآيات وجهت لهؤلاء ، لم توجه ضد الشعر في ذاته ، ولا وجهت ضد الشعراء على إطلاقهم . بل خصت فريقاً معيناً منهم ، له سماته وقسماته ، لو تخلى عنها، ولحق بموكب الشعراء الذين استثنوا منهم ، لوجدوا أنفسهم وهم يهدرون بقصائدهم في محاريب العبادة ، أو ساحات الجهاد ، يمدهم إيمانهم بجذوة لا تنطفئ تحت جفان الخير ، وجوابي الرشاد. فما هم أهل بضاعة بائرة ، ولا حرفة منكرة ، وكيف ينكر على من أنفق من طيبات كسبه ؟! والله عز وجل يقول : (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم...) [1] . ولا أكون مبالغاً إذا قلت إن القرآن لا يتنكر للإبداع

---

(١) البقرة / ٢٦٧

الشعري، بل يعده من وظيفة الشاعر المسلم، ويعتبره – بشروط – عبادة وجهاداً. وما كان للقرآن أن يدع واحداً من أتباعه متوارياً بطاقته الفنية، أو معطلاً لها؛ لأن الطاقة الفنية الهادرة إن لم تخدم في صف الخير، اتجهت إلى منحنيات الضلال والفساد. فلابد من استنفاد تلك الطاقات في اتجاهات عليا، في تحقيق العبودية الشاملة لله عز وجل، والإعراض عن اللغو يصون الشاعر عن الانحراف للتفاهات، وما خلق الإنسان سدى.

نسأله سبحانه أن يجعلنا ممن همه الصدق، وبغيته الحق، وغرضه الصواب، والحمد لله رب العالمين.